

المبحث الأول: النور والظلمات في الكتاب الكريم

جاء في كتاب الله ﷻ ذكر النور والظلمات في آيات كثيرة، وهذا فيه دلالة على الترغيب في العمل لاكتساب النور، وسؤال الله ذلك، والترهيب من الظلمات والاستعاذة بالله من ذلك، ومن هذه الآيات ما يأتي:

١ - قال الله ﷻ في شأن المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرِجْعُونَ﴾^(١).

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة، ومقاتل، والضحاك، والسدي أن هذه الآيات نزلت في المنافقين، يقول: مثلهم في نفاقهم كمثلي رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفاً ورأى ما حوله، فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمة خائفاً متحيراً، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان آمنوا على أموالهم، وأولادهم، وناكحوا المؤمنين، ووارثوهم، وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف^(٢).

واختار الإمام ابن جرير الطبري هذا القول، فقال: «وأولى التأويلات بالآية: ما قاله قتادة، والضحاك، وما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس»^(٣)، وذكر رحمه الله أن هؤلاء المنافقين أظهروا إيمانهم بالله، وملائكته، وكتبه ورسوله، واليوم الآخر، حتى حُكِمَ لهم بذلك في

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٧-١٨ .

(٢) تفسير البغوي، ١/ ٥٣ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١/ ٣٢٤، وذكر سنده لقولهم في: ١/ ٣٢٣ .

الدنيا: في حقن الدماء والأموال، والأمن على الذرية، كمثل استضاءة الموقد للنار بالنار، حتى إذا انتفع بضياؤها، وأبصر ما حوله خمدت النار، فذهب نوره، وعاد في ظلمة وحيرة، فالله ﷻ يُطفئ نورهم يوم القيامة، فيستنظروا المؤمنين؛ ليقتبسوا من نورهم، فيقال لهم: «ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا»^(١)، فقد حصل لهم في الآخرة ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها^(٢).

واختار الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى أن هؤلاء آمنوا ثم كفروا فقال: «وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، واستأنس بها، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياءً لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا»^(٣)، وقال رحمه الله: «وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هاهنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١/٣٢٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١/٢٣٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٢٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/٥١.

هُمْ بِمُؤْمِنِينَ^(١)، والصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينافي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه، وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٢)، انتهى^(٣).

قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى: «مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد ناراً: أي كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة، فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده مُعَدَّةً، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف، وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك ذهب الله بنوره، فزال عنه النور، وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة، والنار محرقة فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفةً لهم، فاستضاءوا بها مؤقتاً، وانتفعوا، فحقت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم كذلك إذ هجم عليهم الموت فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كلُّ همٍّ وغمٍّ وعذاب، وحصل لهم:

(١) سورة البقرة، الآية: ٨.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥١.

ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي، على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار؛ فلهذا قال تعالى: ﴿صُمَّ﴾ أي عن سماع الخير، ﴿بُكِّمُ﴾ أي عن النطق به، ﴿عُمِّي﴾ أي عن رؤية الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعاً منهم^(١).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «شَبَّهَ سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا ناراً؛ لتضيء لهم، وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم قوم سَفَرُ ضَلُّوا الطريق فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم وأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون، وقد سُدَّتْ عليهم أبواب الهدى الثلاثة؛ فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سُدَّتْ عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم شيئاً، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها»^(٢).

وبيَّن رحمه الله تعالى أن الله ﷻ: «سَمَّى كتابه نوراً، ورسوله ﷺ نوراً، ودينه نوراً، وهُدَاهُ نوراً، ومن أسماه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله»^(٣)، وبيَّن رحمه الله: «أن الخارجين عن

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٢٧ .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية، ٦٣/٢ .

(٣) المرجع السابق، ٣٥/٢، وانظر: ٤٤/٢ .

طاعة الرسل يتقلبون في عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاث، وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة ونبينا ﷺ من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيها ﷺ من النور ما ليس لنبي غيره»^(١).

٢ - وقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَّجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢)، وهذا مثل آخر ضربه الله ﷻ للمنافقين، بمعنى: إن شئت مثلهم بالمستوقد، وإن شئت بأهل الصيِّب، وهو المطر الذي يصب: أي ينزل من السماء إلى الأرض، وقيل: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، يريد: وكصيِّبٍ ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ أي: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، ﴿وَرَعْدٌ﴾: وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، ﴿وَبَرْقٌ﴾، وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مَّشَوْا فِيهِ﴾، ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أي وقفوا متحيرين^(٣).

(١) المرجع السابق، ٤٣/٢ .

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٩-٢٠ .

(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل القرآن، للطبري، ١/٣٣٣-٣٦٢، والجامع لأحكام القرآن،

فالله تعالى شَبَّهَهُمْ في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازةٍ وسوادٍ في ليلةٍ مظلمة، أصابهم فيها مطرٌ فيه ظلمات، من صفتها أن السَّاري لا يمكنه المشي فيها، وصواعق من صفتها أن يضم السامعون أصابعهم إلى آذانهم من هولها، وقوة صوتها المخيفة، وبرق من صفتها أن يقرب من خطف أبصارهم، ويعميها من شدة توقُّده. فهذا مثَلٌ ضربه الله للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر: القرآن؛ لأنه حياة القلوب، كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات: الكفر والشرك الذي حذَّر عنه القرآن، والرعد ما خوَّفوا به من الوعيد، وذكر النار، والبرق ما فيه من الهدى والبيان، والوعد، وذكر الجنة، فالمنافقون يسدُّون آذانهم عند قراءة القرآن، مخافة ميل القلب إليه؛ لأن الإيمان عندهم كفر، والكفر موت ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: أي يبهر قلوبهم^(١).

وقال العلامة السعدي رحمه الله بعد أن ذكر تفسير الآية: «فهكذا حالة المنافقين إذا سمعوا القرآن، وأوامره، ونواهيته، ووعدته، ونهيته، ووعيده جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيته، ووعدته، ووعيده، فيروعهم وعيده، وتزعجهم وعودته، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد فيجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فهذا ربما حصلت له السلامة،

= للقرطبي، ١/٢٣٣-٢٤٢، وتفسير البغوي، ١/٥٣-٥٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير،

١/٥٣، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٢٧ .

(١) تفسير البغوي، ١/٥٤ .

وأما المنافقون فأنى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم: قدرةً، وعلماً، فلا يفوتونه، ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتمَّ الجزاء، ولما كانوا مُبتلين بالصَّمَمِ، والبكم، والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي الحسية، ففيه تخويف لهم، وتحذير من العقوبة الدنيوية؛ ليحذروا فيرتدعوا عن بعض شرهم، ونفاقهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارضٍ»^(١).

وقد تكلم الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً نفيساً بعد أن ذكر المثل الناري للمنافقين، فقال: «ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي، فشبهم بأصحاب صيِّب، وهو المطر الذي يصبُّ: أي ينزل من السماء، فيه ظلمات، ورعد، وبرق؛ فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن، ووعدده، ووعيده، وتهديده، وأوامره، ونواهيته، وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة، ورعد، وبرق؛ فلضعفه وخوفه جعل أصبعيه في أذنيه خشيةً من صاعقة تصيبه»^(٢).

٣ - قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ وَيُؤِي الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٢٧ .

(٢) أمثال القرآن، ص ١٨، وانظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، لابن القيم، ٦٨/٢، ففيه كلام عظيم النفع.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾.

لا شك أن الله ﷻ نصير المؤمنين، وظهيرهم، ويتولاهم بعونه وتوفيقه، ويخرجهم من ظلمات: الكفر، والشرك، والضلالة، إلى نور: الإيمان، والتوحيد، والهداية، وقد جعل سبحانه الظلمات للكفر مثلاً؛ لأن الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها، وكذلك الكفر حاجبٌ أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحة أسبابه، فالله ﷻ وليُّ المؤمنين، ومُبَصِّرهم حقيقة الإيمان، وسبله، وشرائعه، وحججه، وهاديهم فموفقهم لأدلتته المزيلة عنهم الشكوك بكشفه عنهم دواعي الكفر، وظلم سواتره عن إبصار القلوب، والذين كفروا بجحد وحدانيته، نُصِرُوا هُمْ وظُهِرُوا هُمْ الذين يتولونهم ﴿الطَّاغُوتُ﴾ وهم: الأنداد، والأوثان الذين يعبدونهم من دون الله، يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر، وشكوكه الحائلة دون إبصار القلوب، ورؤية ضياء الإيمان وحقائق أدلته وسُبله (٢).

٤ - وقال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٣).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧ .

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١/٣١٨، و٥/٤٢٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣/٢٨٢ .

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٧٤-١٧٥ .

فبين الله ﷻ أنه قد جاء جميع الناس حجة منه سبحانه، وبرهان قاطع للعدر، والحجة المزيلة للشبهة، وهو محمد ﷺ الذي جعله الله حجة قطع بها أعدار الناس، وأنزل الله معه النور الواضح المبين «وهو القرآن الكريم» الذي يبين الحجة الواضحة، والسبل الهادية إلى ما فيه النجاة من عذاب الله، وأليم عقابه، لمن سلكها واستنار بضوئها^(١). والله ﷻ قد جعل النور في كتبه التي أنزلها على رسله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾^(٢)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾^(٣)، وقال تعالى في عيسى ﷺ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾^(٤)، وقد أنزل الله ﷻ القرآن الكريم، وختم به هذه الأنوار، فهو النور الأعظم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^(٥).

٥ - وقال الله ﷻ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(٦): يعني بالنور محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به، يبين الحق، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٩/٤٢٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١/٥٦٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٦) سورة المائدة، الآيتان: ١٥-١٦.

أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١﴾، ومن إنارته ﷺ للحق تبيينه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب، وقوله تعالى: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم: من توحيد الله، وحلاله، وحرامه، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ يُبين للناس ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، ويوضحه لهم، حتى يعرفوا حقه من باطله (١).

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سبل السلام: طرق السلام، والسلام هو الله ﷻ، وسبيل الله الذي شرعه لعباده، ودعاهم إليه، وابتعث به رسله: هو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا به، ويخرجهم من الظلمات إلى النور: يعني من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام وضيائه (٢).

وقال السعدي رحمه الله: «ظلمات: الكفر، والبدعة، والمعصية، والجهل والغفلة، إلى نور: الإيمان، والسنة، والطاعة، والعلم والذكر» (٣).

٦ - وقال ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٤)، قال الإمام القرطبي

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥-٤٦ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١٤٣/١٠ .

(٣) المرجع السابق، ١٤٥/١٠ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ١٨٨ .

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١ .

رحمه الله في تفسير هذه الآية: «واختلف العلماء في المعنى المراد بالظلمات والنور، فقال السدي، وقتادة، وجمهور المفسرين: المراد سواد الليل، وضياء النهار، وقال الحسن: الكفر، والإيمان، قلت: اللفظ يعمُّه»^(١)، وقال السعدي رحمه الله: «فَحَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَسَعَةِ عِلْمِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَعُمُومِ حِكْمَتِهِ، وَانْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَعَلَى جَعْلِهِ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، وَذَلِكَ شَامِلٌ لِلْحَسْبِيِّ مِنْ ذَلِكَ: كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْمَعْنَوِيِّ: ظُلُمَاتِ: الْجَهْلِ، وَالشُّكِّ، وَالشَّرْكِ، وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْغَفْلَةِ، وَنُورِ الْعِلْمِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْيَقِينِ، وَالطَّاعَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ»^(٢).

٧ - وقال ﷺ: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زِينٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٣).

هذا مثل ضربه الله للمؤمن الذي كان ميتاً: أي في الضلالة حائراً، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسوله ﷺ^(٤)، فقد كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان، وبجهله بتوحيد الله وشرائع دينه، وتركه العمل لله بما يؤدي إلى نجاته، فأحياه الله بروح

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٣٦١ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٢١٢ .

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢ .

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢/ ١٦٣ .

أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه، وهي روح هدايته للإسلام، ومعرفة الله وتوحيده، ومحبته، وعبادته وحده لا شريك له، وجعل له نوراً يمشي به بين الناس، وهو نور القرآن والإسلام، فهل يستوي هذا بمن هو في الظلمات: ظلمات الجهل، والكفر، والشرك، والشك، والغيب والإعراض، والمعاصي؟ ليس بخارج منها؛ قد التبست عليه الطرق وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهمُّ، والغمُّ، والحزن، والشقاء، فنبه ﷺ العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات، فكأنه قيل: فكيف يُؤثر من له مسكة من عقل أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيراً؛ فأجاب بأنه ﴿زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلم يزل الشيطان يُحسِّن لهم أعمالهم، ويُزيِّنُها في قلوبهم، حتى استحسَنوها ورأوها حقاً، وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم^(١).

٨ - وقال ﷺ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

بين وأوضح ﷺ أن اليهود والنصارى ومن معهم من المشركين ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ونور الله: دينه الذي أرسل به محمداً ﷺ، وسماه الله نوراً؛ لأنه يستنار به في ظلمات الجهل، والأديان

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١٢/٨٨، ومدارج السالكين، لابن القيم،

٣/٢٥٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢/١٦٣، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام

المنان، للسعدي، ص ٢٣٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

الباطلة؛ فإنه علمٌ بالحق، وعملٌ بالحق، ويدخل في هذا النور حجج الله على توحيده؛ فإنّ البراهين نور لما فيها من البيان، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهاهم من المشركين يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم الباطلة، وجداهم، وافترائهم، فمثلهم كمثل من يريد أن يُطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها^(١)، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

٩ - وقال ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾^(٣)، قال قتادة: «أما الأعمى والبصير: فالكافر والمؤمن، وأما الظلمات والنور: فالهدى والضلالة»^(٤).

١٠ - وقال ﷻ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٥)، قال قتادة: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١٤/٢١٣-٢١٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٨/٦١٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢/٣٣٤، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٢٩٥، وص ٧٩٧.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ٧-٨.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١٦/٤٠٧.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ١.

الضلالة إلى الهدى»^(١)، قال السعدي رحمه الله: ليخرج الناس من ظلمات الجهل، والكفر، والأخلاق السيئة، وأنواع المعاصي إلى نور العلم، والإيمان، والأخلاق الحسنة»^(٢).

١١ - وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٣): أي ادعهم من الضلالة إلى الهدى^(٤).

وقال السعدي رحمه الله: «أي ظلمات الجهل والكفر، وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه»^(٥).

١٢ - وقال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٦).

وقد فسّر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقيل في تفسير ذلك أقوال:

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن، للطبري، ١٦/٥١٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٣٧٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

(٤) جامع البيان عن تأويل أي القرآن، للطبري، ١٦/٥١٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٣١٦.

(٦) سورة النور، الآية: ٣٥.

- ١ - الله هادي أهل السموات والأرض.
- ٢ - الله يُدبّر الأمر في السموات والأرض: نجومها، وشمسها، وقمرها، فهو سبحانه مُنور السموات والأرض.
- ٣ - الله ضياء السموات والأرض^(١).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبار كلاً»^(٢).

فالله ﷻ هادي أهل السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من الضلالة ينجون، وهو سبحانه منور السموات والأرض، ومُدبّر الأمر فيهما: بنجومها، وشمسها، وقمرها، وهو ﷻ نور؛ فقد سمى نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله نوراً، ودينه نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نوراً تتلأأ^(٣).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه نور، الذي لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك المعنوي يرجع إلى الله: فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، ١٧٧/١٩، وتفسير البغوي، ٣/٣٤٥، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١١/٢٥٨، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/٢٨٠، واجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، ٢/٤٤.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ٢/٤٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ٢/٤٤.